

## الخلان والزمان

عن أبي فراس والبارودي

للأستاذ محمد محمد الحوفي

- ٣ -

وبعد فلو أننا قدمنا ذلك الشعر باسم البارودي ، لم نتجن على الحقائق ، ولم نسيء إلى أحد الشعراء : فإن هذه الماني التي عرضناها لأبي فراس في موضوع الصداقة - هي بمينها الماني التي قالها البارودي ، والتي سنمرض شيئاً منها كذلك .

كيف اتفق البارودي مع أبي فراس في الحكم على الناس ؟ وليس الجواب عن هذا السؤال سهلاً ، إذا عرفنا أن البارودي كان كأبي فراس - عبقرياً في الحرب وفي السياسة وفي الشعر . حارب غير مرة فظفر ، ولجىء إليه عند الأزمات السياسية فصقى الماء العكر ، وتمهد الشعر العربي فأجدد به بعد أن نخر .

والناس كما أسلفنا - في كل زمان يكيدون للنايين كيداً ، ويترصون بهم الدوائر حقداً ؛ والحق أن أبصر الناس بالناس هم المباشرة ؛ لأنهم هم الذين يتلفون حقدهم ، وتنكشف أمامهم خبايا نفوسهم .

فالبارودي إذ يتحدث عن الصحاب ، إنما يصدر عن تجربة . ثم كان عمر البارودي مشجعاً بحضه وفتنه على تمييز المخلص في صداقته من الخادع ؛ إذ كانت الفتن الداخلية السياسية على أشدها ، وكان القربون من الخديو غرضاً يرميه الوشاة بمنزعاتهم ، وكان بعض هؤلاء المقربين يشي ببعض ، فيتهم أحدهم الآخر بمالأة الشعب ، وتحريضه على الثورة ، أو حثه على إخراج الخديو ، وكان الإنجليز يتساقون الأخبار ليمروا حركات الزعماء ونوابهم ، فكثرت الدسائس والوشايات واستطاع شائئو البارودي أن يدسوا عليه ، وأن يلتوا عليه مع سائر الزعماء تبعه الثورة المرابية .

ثم كان نفيه - كسائر أبي فراس - آخر محك للصداقة ،

وأصدق مميّار لمن يدعون الوفاء ، حيث تراجع عن صداقتهم المدعون ، وكشفت المحن ضمائر المستورين .

وليس يفوتنا هنا كذلك أن من أسباب كثرة الحساد للبارودي ، غلوه هو أيضاً في الفخر ، وشدة غروره بنفسه وبنسيه ، وقد كان في عصره كثيرون غيره ، يرون أنهم أعرق منه أصلاً ، وأشرف محتداً ، فلا بد أن يوغر صدورهم نخره .

وكما خبر أبو فراس الناس خبرهم البارودي حتى مله الاختيار ، فرأى مودتهم كذاباً ، وقلوبهم ليست مثل ألسنتهم ، فيش من الشور على صديق صدوق !

ولقد بلوت الناس في أطوارهم وملت حتى ملتي الإيلاء  
فإذا المودة خلة مكذوبة بين البرية والوفاء رياء  
كيف الوثوق بذمة من صاحب وبكل قلب نقطة سوداء  
لو كان في الدنيا وداد صادق ما حال بين الخلتين جفاء  
فانفض يدك من الزمان وأمله فالهمي في طلب الصديق هباء

والناس أعداء في التيب ، ولكنهم عند الحضور صبح :

أ.أ في زمان غادر ومعاشر يتلونون تلون الحاربا  
أعداء غيب ليس يسلم صاحب منهم وإخوة محض ورخاء  
أصبح بهم قوما بلوت إخاءهم فبلوت أبيض ذمة وإخاء  
وأشد ما باقى الفتى في دهره فقد الكرام وصحبة الأوثام

وهذه نصيحة يوجهها إليهم عن تجربة :

بلوت سراير الإخوان حتى رأيت عدو نفسي من حبيبي  
فلا تأمن على سر صحابا فإنهم جواسيس السيوب

ويحرص البارودي على أن يعرفك أنه خبر الصحاب وجربهم ،  
فقلما بذكرم إلا يذكر أنه ابتلام :

بلوت إخاء الناس دهرأ فلما جد أخائفة برعى مني كحضري  
ويقول :

بلوت بنى الدنيا فلم أر صاحباً يدوم على ود بغير تكاف  
ويقول :

بلوت بنى الدنيا فلم أر صادقاً فإن امرى الأكرمون الأصادق  
ويتبر البارودي كذلك شرفاً له أن يحسد .

ونظر أبو فراس إلى ابن عمه ، فرأى نفسه وإياه في مرتبة واحدة ، وقارن بين حاله وحال سيف الدولة فلمس فروقاً شاسعة: أمير مملك يحتمى به ويخشى منه ، وأمير يقيم فقير ، لا سلطان له على الناس حتى يرهبوه ولعل أبا فراس فكر في فضائل سيف الدولة ، وأسباب سيادته على قبيلته ، فوجد الفضائل عنده هو أتم ، وأن سيف الدولة فيه من العايب ما ليس في نفسه .

ولعله كذلك ذكر أن أباه - وقد كان عم سيف الدولة - كان هو الأحق بالإمارة من ابن أخيه ، فتقاليد الحكم أن يلى الملك أكبر رجال الأسرة وأقربها إلى أصولها .

وما دام والد أبي فراس كان أحق من سيف الدولة ، وما دام أبو فراس يرى في نفسه المثل العليا للشجاعة والكرامة والمجد - فلا بد أن يكون قد حدث نفسه بأن تتول إليه المملكة ، بعد وفاة سيف الدولة .

أقرر هذا متمداً على شعر أبي فراس نفسه ، ومنصفيننا يساق الحوادث التاريخية وإن لم تُصرح .

وما كان لإنسان عادي ، لا يتقرب الملك أن يقول : على طلاب العز من مستقره ولا ذنب لي إن حاربته المطالب أيكون للامز مستقر - عند الأمراء - غير الملك ، وإذا لم يكن الملك فلم يقول : « ولا ذنب لي إن حاربته المطالب » ، إنه يريد بحاربة المطالب ، مقاومة الظروف وعجزه عن التربع على الإمارة في حلب ، ووقوف الحساد في سبيل غايته .

وما كان لغير طامع في الإمارة أن يقول :

يصانف مهري لأمر لا أبوح به

والدرع والرمح والممصامة الخدم

إني أبيت قليل النوم أرقني قلب تكأف فيه الهم والهمم وأن يقول :

ولو نيلت الدنيا بفضل منحيتها فضائل تحوبها وتبقى فضائل  
ولكن دهرأ دافعتني صروفه كما دافع الدين الغريم الماطل  
وأن يقول :

تطالبني بيض الجوارم والذنا بما وعدت جدى في الخنايل

\*\*\*

على أن ما وقع من أبي فراس عقب موت سيف الدولة

ليضن بي الحساد غيظاً فإبني لآنا فهم رغم وفي أكبادهم وقد  
أنا القائل المحمود من غير سبة ومن شيمة الفضل المداورة والضد  
فقد يحسد المرء ابنه وهو نفسه ورب سوار ساق عن حمله المضد  
فلازلت عموداً على المجد والاعلا فليس بمحمود فتى وله ند  
ونفسه توافة إلى خل وفي يشكوله فيسمع ، وبمحن إليه  
فينمو إحساسه ويتعرع .

فمن لي وروعات المنى طيف عالم بنى خلة تزكو لديه الصنائع  
أشاطره ودى وأفضى اسمه بسرى وأمليه المنى وهو رابع

وما أشد حاجة الإنسان إلى خلٍ رضى ، يعاشره على

سجية :

متى يجد الإنسان خلا موافقاً يخفف عنه كافة التحفظ  
فإني رأيت الناس بين مخادع لإخوانه أو حاسد متغيظ

## الدهر

قلنا إن والد أبي فراس خله في الثالثة ، فشب بتبياً يرى  
كلا يفخر بأبيه وينال حنانه إلا نفسه . ابن أبي ؟ ولماذا قتل وحده  
في الحرب دون آباء هؤلاء اللدات ، ولم أمجته المنية قبل أن أملى  
به عيني ، وأمس عطفه على ؟ يا لك من دهر !!

وقلنا إن نفس أبي فراس كانت طموحاً عالية ، وإنه شمع  
على أسرته وسائر الناس ، فكروها منه ذلك ، ولا سبياً أنه ليس  
لديه من الأموال ما لدى غيره من الأمراء ، فانصرف عنه الناس  
إلى أقرانه من أسرته فأحس أن أخلاق الصحاب نغمية ، لا تصمد  
عند الشدائد ، وقوى هذا الإحساس حينما أسر فتفرق من حواليه  
مدعو صداقته ، وأمن الحساد في ثقاتهم به .

وما دام الدهر خلواً من الأخلاء والأوفياء ، ما يثاب بكيد  
الحساد والشامتين ، فهو دهر ثقيل ، يلغنه ساحبه في كل مقال  
وتقول هنا كذلك : إن أبا فراس نشأ فوجد ابن عمه  
سيف الدولة أمير حلب وهو فيها صاحب العز والغلب ، مهميب  
جانبه من الروم والباسيين وسائر دويلات العرب . . . وأبناء  
الممومة في مرتبة واحدة يرى كل منهم نفسه ندا للآخرين ،  
له محادم ، وفيه أمجادهم .

لا أقتنى لصروف دهرى عدة حتى كأن صروفه أحلافى  
ويقول فى هذا المعنى أيضاً :  
وخبرت هذا الدهر خيرة ناقد حتى أنت بحسيرة وبشره  
ثم يشرك معه بنى حمدان فى عدم المبالاة بالدهر :  
نظرنا إلى هذا الزمان بعينه فهات علينا ما يشت وبنتم  
ولكنه بمد هذا التجرد للدهر والاستهانة به . يكرر التظلم  
منه . قال شيب عنده أهون رزايا الدهر :

وقلت الشيب أيسر ما الألقى من الدنيا وأيسر ما أدارى  
وهو فى استعطاف سيف الدولة يعده جنة من رب الدهر :  
فقولا له يا صادق الود لاني جملتك مما رابنى الدهر مغزعا  
وبعجب أن ينكر عليه سيف الدولة شكوى الزمان :  
انتكر أنى شكوت الزمان وأنى عمتك فيمن عتب  
ويستعطف سيف الدولة بأن حوادث الأيام جرحت قلبه :  
زمانى كله غضب وعتب وأنت على الأيام إلب  
فلا تحمّل على قلب جريح به لحوادث الأيام نذب  
ثم يشكو تعاون سيف الدولة مع الدهر على اضطهاده :

فيا حكى السأمول جرت مع الهوى  
ويا تقى السأمول جرت مع الدهر  
ثم يستضعف أبو فراس نفسه - على غير عادته - ما لم  
يعاونه أصدقاؤه على سد هجمات الدهر ، ولذا يتقاضى عن ذنوبهم ،  
أكيلا يذروه وحده أمام الدهر :  
واعلم إن فارقت خلا عرفته وحوادث خلا أنى غير واجد  
وهل نأفى إن عضى الدهر مفردا  
إذا كان لى منهم قلوب الأباعد  
( التية فى المدد القادم ) محمد محمد الحوفى

يؤيد ما ذهبنا إليه من أن أبا فراس كان يحدث نفسه بالإمارة :  
فقد خرج الشاعر بمحمص على أبى المالى بن سيف الدولة ، وحاول  
أن يحمل محله ؛ ولكن أبا المالى وفر عو به هزما ، ويقال إنه قتل  
فى هذه المعركة وبعد :  
فليس بدعا من أبى فراس أن يردد الشكوى من الدهر ،  
ويحقد عليه فى كل قول ، بمد أن حاربه فى أبيه ، وفى أصدقائه ،  
وفى أمانيه

\*\*\*

وايس الذى لفتنا فى شعر أبى فراس مجرد الحديث عن الدهر ،  
والكنه تكرر هذا الحديث حتى ليصبح أن نسعى شعره كله  
بالشعر الدهرى ثم اتفاق كل هذه الأحاديث الدهرية على لعنة  
الدهر ، والثورة على صروفه وظروفه .  
فترى أبا فراس يصور الدهر المدافع لطموحه مماطلا يدافع  
غريمه :

تطالبنى بيض الصوارم والتنا بما وعدت جدى فى الخايل  
ولكن دهرأ دافتمنى صروفه كما دافع الدين التريم الماطل  
ويقول لسيف الدولة أول أسره :  
وما أنا إلا بين أمر وضده يجدد لى فى كل يوم مجدد  
فن حسن صبر بالسلامة واعد ومن ريب دهر بالردى متوعد  
ويذكر أن أصحابه يوم أسره ، كانوا قد أشاروا عليه بأن  
يحجم فرفض وأن الدهر هو المسئول عن إخفاقه فى هذا اليوم :  
يقولون جاهد . عادة ما عرفتها شديد على الإنسان ما لم يعود  
قلت : أما والله ما قال قائل شهدت له فى الخيل الأم مشهد  
ولكن سألقاها فإما منية هى الطمن أو بنيان عمر مشيد  
ولم أر أن الدهر من عدد المدا وأن المنايا السود يرمين عن يد

ثم يحاول أن يثبت أمام طمعات الزمان ، وأن تصدق فراسته  
فيه ، فيقول :  
وقور وأهوال الزمان تنوشنى وللموت حولى جيثة وذهاب  
واللحظ أهوال الزمان بمقلة  
بها الصدق صدق والكذاب كذاب

ويقول :  
ومن ورد المهالك لم ترعه رزايا الدهر فى أهل ومال  
وقد حالفته صروف الدهر حتى توهمت نفسه أنه لا يستد لها ،  
لأنه ألغها :

اطلب نسختك

من الطبعة الجديدة من كتاب

تاريخ الأدب العربى